دراسة منهج الحافظ ابن كثير في كتابه

"مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه"

فريد فوزان محي الدين

الجامعة الإسلامية العالمية الإندونيسية

farid.muhyiddin@students.uiii.ac.id

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة كتاب مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه للحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، بوصفه واحدا من المصنفات الحديثية المهمة التي اعتنت بجمع مرويات أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ويهدف البحث إلى بيان مكانة الكتاب العلمية، والتعريف بمؤلفه، والكشف عن منهجه في جمع الأحاديث والآثار، وترتيبها، والحكم عليها.

وقد اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي في تتبع مادة الكتاب ومقدمته، والمنهج الوصفي التحليلي في دراسة خصائصه العلمية ومنهج مؤلفه. وتوصل البحث إلى أن الحافظ ابن كثير جمع في هذا المسند الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة المتعلقة بالأحكام الفقهية وغيرها، معتمدا على مصادر حديثية أصيلة، مثل الصحاح والسنن والمسانيد. كما تبين أنه رتب كتابه على أبواب الفقه، مبتدئا بكتاب الطهارة، مع عناية ظاهرة بالتبويب وحسن التنظيم.

وأظهر البحث كذلك أن ابن كثير سلك منهجا نقديا في التعامل مع الروايات، فلم يقتصر على الصحيح، بل أورد الصحيح والحسن والضعيف، مع بيان درجات الأحاديث، والكلام على الأسانيد جرحا وتعديلا، والاستفادة من المتابعات والشواهد في تقوية الروايات أو بيان عللها. وانتهى البحث إلى أن هذا الكتاب يمثل مصدرا مهما في الدراسات الحديثية، ويبرز جانبا من شخصية ابن كثير المحدث الناقد، إلى جانب شهرته في التفسير والتاريخ.

الكلمات المفتاحية: ابن كثير، مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه، أبو بكر الصديق، المسانيد، منهج المحدثين، علوم الحديث.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد؛ فإن خدمة السنة النبوية والعناية بتراث المحدثين من أشرف ميادين البحث العلمي، إذ بها تحفظ نصوص الشريعة، وتظهر جهود العلماء في جمع الحديث وتمييز صحيحه من سقيمه، وبيان مناهج المصنفين في التصنيف والترتيب والنقد. ومن بين الأئمة الذين كان لهم أثر بالغ في هذا المجال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، الذي جمع بين علوم التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وخلّف تراثا علميا نفيسا يدل على سعة اطلاعه ودقة منهجه.

ويعد كتابه مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه من المؤلفات المهمة التي أفردها لجمع مرويات أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث جمع فيه الأحاديث المسندة والآثار المتعلقة بأحكام الدين وسيرة الصديق رضي الله عنه، معتمدا على مصادر حديثية أصيلة، كالمسانيد والسنن والصحاح، ومراعيا منهجا نقديا في الحكم على الروايات، مع ترتيبها على أبواب الفقه تيسيرا للانتفاع بها.

وتظهر أهمية هذا الموضوع في إبراز جانب من جهود الحافظ ابن كثير الحديثية، إذ اشتهر عند كثير من الباحثين بكتابه في التفسير والتاريخ أكثر من شهرته في علم الحديث، مع أن له عناية ظاهرة بهذا الفن، تتجلى في هذا الكتاب من خلال جمع الروايات، واستقصاء الطرق، والحكم على الأسانيد، وحسن التبويب والترتيب.

وتتمثل إشكالية هذا البحث في محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما مكانة كتاب مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه بين كتب المسانيد؟ وما منهج الحافظ ابن كثير في جمع الروايات وترتيبها؟ وكيف تعامل مع الأحاديث من حيث القبول والرد والحكم على الأسانيد؟ وما أبرز الخصائص العلمية التي تميز بها هذا الكتاب؟

أما الدراسات السابقة، فقد تناولت بعض الكتب والتراجم شخصية الحافظ ابن كثير ومصنفاته بصورة عامة، كما قام محقق الكتاب بدراسة علمية نافعة تناول فيها وصف الكتاب ومنهج مؤلفه، غير أن الحاجة ما زالت قائمة إلى بحث مستقل يجمع تلك الجوانب ويحللها تحليلا علميا مركزا.

وسيعتمد هذا البحث على المنهج الاستقرائي في تتبع النصوص المتعلقة بالكتاب ومنهج مؤلفه، والمنهج التحليلي في دراسة مادته العلمية واستخراج خصائصها، والمنهج الوصفي في عرض حياة المؤلف ومكانة الكتاب وأهميته.

ويصل البحث إلى عدد من النتائج، من أبرزها: أن الحافظ ابن كثير كان محدثا ناقدا ذا منهج راسخ في الرواية والدراية، وأن كتابه يمثل مصدرا مهما في جمع مرويات أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه امتاز بحسن الترتيب الفقهي، وسعة الاستقصاء، والعناية بالحكم على الأحاديث وبيان عللها، مما يجعل الكتاب ذا قيمة علمية كبيرة في الدراسات الحديثية.

مقدمة عن حياة المؤلف

– اسمه ومولده

هو عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي القيسي البصروي ثم الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير، وهو الإمام الحافظ المفسّر الفقيه المؤرّخ الكبير.

ولد في قرية صغيرة من قرى مدينة بصرى من أرض حوران في بلاد الشام، اسمها مجدل أو مجيدل، وذلك سنة ٧٠٠هـ من الهجرة –أو بعدها بيسير–، وقيل سنة ٧٠١هـ –وهو الأصح–، وقد توفي أبوه سنة ٧٠٣هـ، وكان أبوه خطيبا بها –أي في هذه المنطقة–[١].

– نشأته وشيوخه

نشأ ابن كثير في أسرة عرفت بالعلم والصلاح والتمسك بالقيم الإسلامية، وكان أبوه أبو حفص عمر بن كثير شيخا عالما خطيبا. ولما بلغ السابعة من عمره –في سنة ٧٠٧هـ– تحولت أسرته إلى دمشق. وكانت دمشق حينئذ حاضرة العلم والعلماء، ومدارسها ومكتباتها الكثيرة كانت قبلة للعلماء وطلبة العلم من كل صوب وحدب، ونزلت أسرته في الدار المجاورة للمدرسة النورية.

وفي دمشق شرع ابن كثير بطلب العلم على عدد من العلماء الأعلام، منهم: البرهان الفزاري الشهير بابن الفركاح، وابن قاضي شهبة، وابن الشحنة، وابن الزراد، وإسحاق الآمدي، وابن عساكر، وابن الرضي، والذهبي، ولازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاهره على ابنته، وأخذ عن ابن تيمية ولازمه ففتن بحبه وامتحن لسببه.

وكان كثير الاستحضار قليل النسيان، جيد الفهم، حفظ التنبيه وعرضه سنة ثمان عشرة، وحفظ مختصر ابن الحاجب. ثم أقبل على الحديث، فاشتغل بمطالعة متونه ورجاله، فسمع الموطأ للإمام مالك، والجامع الصحيح

---

[١] الذهبي، ***المعجم المختص بالمحدثين***، ٧٤-٧٥. أبو المحاسن، ***ذيل تذكرة الحفاظ***، ٣٨. ابن حجر، ***الدرر الكامنة***، ١/٤٤٥-٤٤٦. ابن العماد، ***شذرات الذهب***، ١/٦٧.

للإمام البخاري، والجامع الصحيح للإمام مسلم، وسنن الدارقطني، وشيئا من السنن الكبرى للبيهقي، وسمع مسند الشافعي، وغير ذلك من المصنفات الحديثية وهو لا يزال في مقتبل العمر، وأفتى ودرس وناظر وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل، وولي مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبي، وبعد موت السبكي مشيخة دار الحديث الأشرفية مدة يسيرة، ثم أخذت منه[١].

– تلاميذه

من الطبيعي أن يكون لعالم كبير موسوعي بمكانة الحافظ ابن كثير، وهو المحدث المتقن، والمفسر البارع، والفقيه المتفنن، عدد من التلاميذ والمنتسبين إلى مدرسته، ممن أخذوا عنه العلم، واستفادوا من معارفه، واقتفوا أثره في منهجه وطريقته، ثم حملوا علمه ونشروا آثاره. وقد شهدوا له بالفضل والإمامة، وأقروا بسعة علمه، وكثرة اطلاعه، وحسن خلقه ومعاملته، فبقي ذكره حيا في نفوسهم، وتردد اسمه في مؤلفاتهم عبر العصور والأزمان.

فمن تلاميذه المشهورين: الإمام الزيلعي، وابن أبي العز الحنفي، وأبو المحاسن الحسيني، محمد بن الجزري المقرئ، وبدر الدين الزركشي، وشهاب الدين ابن حجي، وسعد الدين النووي، وابن عياش، وابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، وغيرهم كثيرون.

– ثناء الأئمة عليه

أثنى عليه الأئمة الأعلام ويعترفون بعلمه، فقال الحافظ الذهبي (٧٤٨هـ): "الإمام الفقيه المحدث الأوحد البارع، فقيه متقن، ومتحدث متقن، ومفسر نقال، وله تصانيف مفيدة يدري الفقه ويفهم العربية والأصول، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم"[٢].

وقال تلميذه شهاب الدين ابن حجي (٨١٦هـ): "كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك وكان يستحضر شيئا كثيرا من التفسير والتأريخ قليل النسيان وكان فقهيا جيد الفهم صحيح الذهن يستحضر شيئا كثيرا ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت ويشارك في العربية مشاركة جيدة وينظم الشعر وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا وأفدت منه"[٣].

---

[١] أبو المحاسن، ***ذيل تذكرة الحفاظ***، ٣٨. ابن حجر، ***الدرر الكامنة***، ١/٤٤٥-٤٤٦. الداوودي، ***طبقات المفسرين***، ١/١١٢. ابن العماد، ***شذرات الذهب***، ١/٦٨.

[٢] الذهبي، ***المعجم المختص بالمحدثين***، ٧٥.

[٣] ابن قاضي شهبة، ***طبقات الشافعية***، ٣/٨٦.

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢هـ): "الشيخ الامام العلامة الحافظ عماد الدين ثقة المحدثين عمدة المؤرخين علم المفسرين"[١].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ): "وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته ولم يكن على طريق المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء"[٢].

وقال الحافظ السيوطي (٩١١هـ): "الإمام المحدث الحافظ ذو الفضائل"، ثم قال: " له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله"[٣].

وقال الداوودي (٩٤٥هـ): "كان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ"[٤].

– مؤلفاته

ألف الحافظ ابن كثير في معظم العلوم الإسلامية، كالتفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، والتراجم، وغيرها من الفنون، سواء من مؤلفاته المطبوعة أو المفقودة، وأكتفي هنا بذكر أبرز مؤلفاته المطبوعة، ومنها: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، وإرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه، والباعث الحثيث إلى اختصار علوم الحديث، وتحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب، والتكميل في الجرح والتعديل، وجامع المسانيد والسنن، وطبقات الشافعية، والفصول في سيرة الرسول، وفضائل القرآن، ومسند أبي بكر الصديق، ومسند الفاروق، والنهاية في الفتن والملاحم، وغيرها كثيرة.

– وفاته

توفي الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في شهر شعبان سنة ٧٧٤هـ في دمشق عن ثلاث وسبعين سنة، وكان قد أضر في أواخر عمره، وكانت جنازته حافلة مشهودة، ودفن عند شيخه ابن تيمية في مقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق[٥].

---

[١] ابن ناصر الدين، ***الرد الوافر***، ٩٢.

[٢] ابن حجر، ***الدرر الكامنة***، ٤٤٥/١.

[٣] السيوطي، ***ذيل طبقات الحفاظ***، ٢٣٩.

[٤] الداوودي، ***طبقات المفسرين***، ١١٢/١.

[٥] ابن ناصر الدين، ***الرد الوافر***، ٩٢. ابن حجر، ***الدرر الكامنة***، ٤٤٦/١. ابن العماد، ***شذرات الذهب***، ٦٧/١.

وصف الكتاب ومكانته العلمية

يظهر جليا من مقدمة الكتاب ما يتعلق بوصف كتابه، وموضوعه، ومكانته العلمية، وذلك فيما يلي:

١- أن مؤلف الكتاب هو الإمام الحافظ ابن كثير، وهو من كبار الأئمة الأعلام والثقات، وقد أكسبت منزلته العلمية الرفيعة هذا الكتاب أهمية عظيمة، ومكانة علمية وتاريخية بارزة.

٢- أن هذا الكتاب من كتب الإمام ابن كثير المفقودة، ثم عثر عليه، لا سيما أنه نسخة منقولة عن نسخة المؤلف في حياته[١]، واعتمدت محققته على نسخة وحيدة للمخطوط، وهي نسخة خطية وحيدة[٢].

٣- أنه جمع ما ورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الأحاديث المسندة والآثار.

٤- أنه اعتمد على أشهر كتب الإسلام المتداولة وأمهات مصادره، مثل مسند أحمد، والموطأ، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وغيرها من كتب السنن والمسانيد.

٥- تظهر مكانة الكتاب في كونه يجمع مرويات أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أفضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ، وأول الخلفاء الراشدين.

٦- تستمد قيمة الكتاب من قوة مصادره، ودقة منهجه، وحسن ترتيبه.

٧- يعد هذا الكتب من المصنفات النافعة للباحثين وطلبة العلم في الحديث والفقه.

قال ابن كثير في مقدمة كتابه: "فهذا ذكر ما ورد عن الوقار، وصاحب الرسول في الغار، فنعم الصاحب والرفيق، إمام الصديقين، وقدوة العارفين أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان الصديق من الأحاديث المسندة، والآثار الواردة في كتب الإسلام المشهورة المتداولة، التي هي أمهات الدين وذخائره، لمسند الإمام أحمد بن حنبل، وموطأ الإمام مالك بن أنس، ومسند الحافظ أبي يعلى الموصلي من طريقيه المشهورتين، ومعجم أبي القاسم الطبراني، ومسند الحافظ أبي بكر البزار، وغيره من أصحاب المسانيد؛ ومن الكتب الستة المعروفة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه رحمهم الله.

مبينا صحيح ذلك من ضعيفه، ومعلوله من معروفه، بيانا كافيا مختصرا -وبالله المستعان- مرتبا على أبواب الفقه ليسهل كشفه على من أراده، وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[٣].

---

[١] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٤١.

[٢] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٤٧.

[٣] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٦٦-١٦٧.

شروط المؤلف في كتابه

يظهر كذلك من خلال مقدمة المؤلف في كتابه أنه اشترط في كتابه عدة أمور، وذلك فيما يلي:

١- أن يختص بجمع أحاديث أبي بكر الصديق ومروياته المرفوعة والموقوفة.

٢- أن تكون الروايات متعلقة بالأحكام الفقهية وسائر الموضوعات النافعة للمسلم.

٣- إيراد بعض الآثار الواردة في ترجمة أبي بكر الصديق وسيرته.

٤- الالتزام بجمع هذه المرويات واستقصائها من أكبر عدد ممكن من المصادر المعتمدة، مثل الكتب الستة، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسندي أبي يعلى والبزار، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، وغيرها من المصنفات.

٥- الحرص على الجمع بين الطرق المختلفة للروايات، واستيعاب ما تفرق منها في المصادر المتنوعة، مع انتقاء ما يناسب موضوع الكتاب ويتجانس مع أبوابه.

وقد ذكرت كذلك محققة الكتاب -غالية بنت سالم بن علي آل سعيد- في قسم الدراسة ما يتعلق بذلك، حيث قالت: "اختار الحافظ ابن كثير أن يكون موضوع كتابه هو: أحاديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومروياته، المرفوعة والموقوفة، وهي: أحاديث في الأحكام الفقهية المختلفة؛ عن الصلاة، والصيام، والحج، وغيرها من المواضيع التي تهم المسلم، وقد ذكر ابن كثير آثارا رويت في ترجمة الصديق أيضا".

ثم قالت: "اعتمد الحافظ ابن كثير في كتابه مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه على جمع مرويات الصديق رضي الله عنه، واستقصائها بمعظم طرقها من الكتب الستة، ومسند أحمد بن حنبل، ومسندي أبي يعلى والبزار، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، وغيرها من الكتب التي ذكرها في مقدمته، والتي لم يذكرها أيضا -وهي كثيرة- وسيكشف للقارئ ذلك من خلال تخريج الأحاديث. وقد تدل كثرة عددها إلى حب ابن كثير رحمه الله للجمع والاستقصاء؛ فهو يجمع من المصنفات المختلفة كل ما يجده متجانسا مع مواضيعه"[١].

منهجه في عرض الأحاديث والتبويب

سأكتفي بما ذكرته محققة الكتاب فيما يتعلق بمنهج المؤلف في عرض الأحاديث والتبويب، حيث قالت: "رتب المؤلف مسنده على أبواب الفقه، متبعا في أوائل أبوابه الستة ترتيبا يشبه إلى حد كبير ترتيب أبواب الدارمي

[١] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٢٨.

في سننه، وابن قدامة في كتابه المقنع. وابتدأ مسنده بكتاب الطهارة؛ اقتداء بالأئمة أمثال: أبي داود، والترمذي، والدارقطني، وابن ماجه، والدارمي، وابن قدامة، ثم تلاه في الترتيب كتاب الصلاة، وأحاديث الجنائز، وكتاب الزكاة، وكتاب الصيام، وأحاديث الحج، وكتاب الصيد والأضاحي والأطعمة، وأحاديث البيوع والمعاملات، وأحاديث الفرائض، وأحاديث في النكاح، وكتاب الأشربة، وكتاب البر والصلة، وكتاب القصاص، وأحاديث في الجهاد، وكتاب الإمامة، وأحاديث في الحدود، وكتاب التفسير، وكتاب الجامع، وأحاديث الفضائل، وختمه بأحاديث في الملاحم وغيرها.

وجعل ابن كثير أحاديث الجهاد قبل أحاديث الحدود، كما فعلت طبقة من العلماء المتقدمين، مثل: الإمام مالك في ترتيب الموطأ، والبخاري في صحيحه، وعبد الرزاق في مصنفه، وأبو داود في سننه، وطبقة من العلماء المتوسطين، مثل: ابن قدامة في المقنع، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وهذا الترتيب لا يتوافق مع ترتيب طبقة بعض العلماء المتقدمين مثل: الإمام مسلم، والترمذي، وابن ماجة، والدارمي في تأخير أحاديث الجهاد إلى ما بعد أحاديث الحدود.

وفصل ابن كثير بين أحاديث الأطعمة والأشربة؛ اقتداء بالأئمة مثل: أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي. وقد جعل ابن كثير لكل كتاب وفرع –في المسند– أحاديث وآثارا تندرج تحتهما، وتتفق موضوعاتها معهما، وجعل هذه الأحاديث والآثار متبوعة بما يماثلها أو يقاربها، وكذلك فعل في سائر أبواب المسند.

وقد رتب بعض طرق الحديث؛ فعمد إلى ترقيمها؛ كأن يقول: الطريق الأولى، ثم يدرج تحته الأحاديث التي زادت عن مسند أحمد أو غيره، ثم يقول: الطريق الثانية وهكذا ... إلخ.

ولم يتخذ ابن كثير منهجا واحدا في ترتيب عناوين كتابه، ووضع عناوين رئيسة وفرعية تباينت في أطوالها، واختلفت في طريقة تبويبها، وأضاف إلى بعض هذه العناوين الرئيسة تسمية كتاب، مثل: كتاب الطهارة، وكتاب الصيام، وكتاب الإمامة، وكتاب التفسير، وكتاب الجامع، ولم يضفه إلى بعضها الآخر، واكتفى بأن ابتدأها بكلمة أحاديث، ومثال ذلك أحاديث الفضائل، وأحاديث في الجهاد. وقد اختلف عدد الأحاديث التي أدرجت تحت كل كتاب، أو فرع، ولعل ذلك محاولة الناسخ اختصار مادة الكتاب"[١].

فمن خلال ما سبق ذكره، يمكننا أن نخلص منهجه في عرض الأحاديث والتبويب إلى ما يلي:

---

[١] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٢٩-١٣٠.

١- رتب مسنده على أبواب الفقه، مبتدئا بكتاب الطهارة ثم الصلاة، ثم تابع أبوابه بكتب الزكاة، والصيام، والحج، والمعاملات، والنكاح، والجهاد، والحدود، والتفسير، والفضائل، وغيرها، وختمه بأحاديث الملاحم.

٢- سار في ترتيبه على نهج عدد من الأئمة، مع شبه ظاهر بترتيب الدارمي وابن قدامة.

٣- قدّم أحاديث الجهاد على الحدود موافقة لبعض المتقدمين، وفصل بين أبواب الأطعمة والأشربة اقتداء بجماعة من العلماء.

٤- جعل تحت كل كتاب أو باب الأحاديث والآثار المناسبة لموضوعه، ورتب أحيانا طرق الحديث بذكر الطريق الأولى ثم الثانية ونحو ذلك.

٥- لم يلتزم أسلوبا واحدا في العناوين، فجعل بعضها باسم كتاب، وبعضها باسم أحاديث، مع تفاوت عدد الروايات تحت كل باب.

وكذلك تميز أسلوب ابن كثير في كتابه بثقافته الواسعة، ومحفوظاته المتنوعة الكثيرة، وباختياره لمواضيعه الشائقة، والبساطة والسهولة في التعبير، والوضوح في المعنى، والعفوية الخالية من التصنع والتكلف في الجمل والكلمات، وبصياغته بعض النصوص بعبارات وألفاظ من عنده، وعدم نقلها حرفيا.

وقد ظهرت شخصيته كفقيها في عرضه بعض المسائل الفقهية الخلافية، مثل: الصلاة عند التوبة، واستحباب تأخير السحور وجوازه ما لم يتحقق طلوع الشمس، وترك الأضحية، ومسألة نزول الله عز وجل في ليلة النصف من شعبان، فكان يعرض أقوال العلماء والفقهاء وآراءهم في هذه المسائل، ويدلل بالحجة ويدعم بالنقول عن الأئمة وغيرهم من العلماء، ما يثبت القول الراجح فيها، وأخيرا يدلي برأيه المستقل، بعيدا عن التحيز والعصبية.

وقد استخدم ابن كثير بعض مختصرات صيغ الحديث في الأسانيد مثل: ثنا – أنا – أنبا، وهي بمعنى: حدثنا – أخبرنا – أنبأنا[١].

منهجه في قبول الرواية

يتضح أيضا مما ذكرته محققة الكتاب ما يتعلق بمنهج ابن كثير في قبول الرواية، وذلك فيما يلي:

١- أن منهجه في قبول الرواية قائم على النقد والتمحيص.

[١] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٣٦.

٢- لم يقتصر على إيراد الأحاديث الصحيحة فقط، بل ذكر الصحيح، والحسن، والضعيف، بل والضعيف جدا والمنكر، مع بيان درجتها وحكمها.

٣- اعتمد في قبول الرواية على دراسة الأسانيد، فتكلم عليها جرحا وتعديلا، ونظر في اتصال السند وانقطاعه، وفي حال الرواة من حيث الثقة والضعف.

٤- استعان بأقوال أئمة هذا الشأن من المحدثين، مثل الترمذي، والدارقطني، وابن أبي حاتم، وعلي ابن المديني، وغيرهم.

٥- من منهجه أيضا تقوية الرواية بالمتابعات والشواهد وتعدد الطرق، إذ يسرد الطرق المختلفة للحديث ليظهر ما يعضد بعضه بعضا، أو يكشف علته وضعفه.

٦- لم يكن يتكلف الحكم على أحاديث صحيح البخاري وصحيح مسلم، لاشتهار قبولها عند أهل العلم، مع التنبيه أحيانا على ما تفرد به أحدهما.

قالت المحققة: "أورد الحافظ ابن كثير في مسنده أحاديث وآثارا كثيرة، مرفوعة وموقوفة، ليست كلها صحيحة، ولكن فيها الضعيف، والضعيف جدا، والمنكر؛ ولعله ذكرها للاستشهاد، والمتابعة، والاعتبار بها، أو ليبين ضعفها وعللها؛ فكان يورد -غالبا- تلك الأحاديث مع أسانيدها كاملة، ثم يعزوها إلى الكتب الستة، أو المسانيد، أو المصنفات الحديثية الأخرى، ويحكم عليها بالصحة، أو الحسن، أو الضعف، ويتكلم على أسانيدها جرحا وتعديلا، مستأنسا بحكم أحد العلماء المختصين بهذا المجال؛ كالترمذي، أو الدارقطني، أو غيرهما من علماء الجرح والتعديل؛ وقد يحكم على الإسناد إن وجد فيه ضعفا، أو غرابة، أو نكارة، ويعلق عليه.

وقد تميز ابن كثير بطول النفس في سرده طرق تلك الأحاديث، وشواهدها، ومتابعاتها، واسترساله في سردها؛ فهو ينتقل من طريق إلى آخر، ومن وجه واحد إلى وجوه أخرى عديدة؛ ليبرهن صحتها أو ضعفها.

وقد يتبع تلك الأحاديث بسند آخر، فيقول: به، أو مثله، أو نحوه؛ وقد حذا حذو من سبقه من العلماء، في تحويل سند الحديث من سند إلى آخر، مستخدما الحرف الحاء (ح) للدلالة على التحويل.

ويستشهد بطرق الحديث المختلفة؛ ليبين صحته من علله، وقد يأتي بشواهده إن وجدت، وكان لا يحكم على أحاديث الشيخين البخاري ومسلم، ويحرص على أن يبين، إن تفرد بها أحدهما.

وعند اختلاف الروايات ينقل ابن كثير -أحيانا- قول المزي في تحفة الأشراف، وتخريجه الحديث، ويسبقه بعبارة: قال شيخنا.

وقد كان ابن كثير يميل إلى الإيجاز، والاختصار في الحكم على الأحاديث والآثار، ويستخدم في حكمه عليها بعض ألفاظ مصطلح الحديث، التي درج من سبقه من العلماء على قولها –وهي كثيرة– مثل: صحيح – حسن – غريب – جيد – متصل – منقطع – مرسل – فيه غرابة – لا نعرفه إلا من هذا الوجه – غريب جدا من هذا الوجه – يعضد ما قبله – يعضد كل منهما الآخر ... إلخ.

ومن ألفاظ الجرح والتعديل التي استخدمها: رجال إسناده ثقات – رجاله ثقات – إسناده لا بأس به – ليس إسناده بذاك – ليس إسناده بالقوي – إسناده حسن لا بأس به – فيه نظر – فلان لم يدرك فلانا ... إلخ"[١].

نموذج من منهجه في عرض الحديث والحكم عليه

سأعرض نموذجا يوضح كيفية تناول الحافظ ابن كثير للأحاديث في كتابه، وذلك من خلال مثال تطبيقي من كتاب الطهارة، وهو حديث السواك، والحديث رقم ٤.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: "قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد –يعني: ابن سلمة–، عن ابن أبي عتيق، عن أبيه، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»"[٢]. ويظهر هنا أنه ابتدأ بإيراد الحديث من مصدر أصيل، مع ذكر سنده كاملا، مما يدل على عنايته بإثبات الرواية من أصولها المعتمدة.

ثم أورد الإسناد الآخر، وحكم عليه بالانقطاع، فقال: "ثم رواه أحمد أيضا، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ابن أبي عتيق –واسمه: عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق– عن أبي بكر[٣]، لم يذكر أباه فهو منقطع". وفي هذا دليل على دقته في نقد الأسانيد، وتنبيهه على مواضع الخلل فيها، مع اهتمامه بتعريف الرواة ورفع الإبهام عنهم.

ثم نقل كلام الإمام الدارقطني، حيث قال: "قال الدارقطني: هكذا رواه حماد بن سلمة، وخالفه جماعة من أهل الحجاز وغيرهم؛ فرووه عن ابن أبي عتيق، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي ﷺ"[٤]. ويظهر من ذلك اعتماده على أقوال أئمة النقد، واستفادته منها في بيان الاختلاف بين الروايات.

---

[١] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٣٣-١٣٤.

[٢] أحمد بن حنبل، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***، ١/١٨٦ (رقم ٧).

[٣] أحمد بن حنبل، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***، ١/١٨٦ (رقم ٦٢).

[٤] الدارقطني، ***العلل الواردة في الأحاديث النبوية***، ١/٢٧٧ (رقم ٦٩).

ثم أورد أقوال عدد من كبار النقاد، فقال: "وهكذا قال الإمام علي ابن المديني، وأبو زرعة، وأبو حاتم: هذا الحديث خطأ، والصواب حديث عائشة"[١]. وفي هذا ما يدل على رسوخ منهجه في الاعتماد على أقوال المتخصصين في الجرح والتعديل والعلل.

ثم ذكر الرواية الراجحة عن عائشة، فقال: "قلت: وكذا رواه أحمد في مسند عائشة من حديث محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي عتيق، عن عائشة، عن النبي ﷺ، ولم يقل عن أبيه"[٢].

ثم أتبعه بما رواه النسائي، فقال: "ورواه النسائي من حديث يزيد بن زريع: حدثني عبد الرحمن بن أبي عتيق، قال: حدثني أبي، قال: سمعت عائشة، عن النبي ﷺ، فذكره"[٣].

كما عضد ذلك بما رواه الإمام أحمد أيضا، فقال: "ورواه الإمام أحمد أيضا عن ابن أبي فديك، عن (إسماعيل بن إبراهيم)[٤] بن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن القاسم، عن عائشة به"[٥]. وهذا يبرز عنايته بجمع الطرق والشواهد، والاستفادة منها في تقوية الرواية وترجيحها.

وختم كلامه بقوله: "وهذا هو الصواب كما قاله الأئمة، والله أعلم"[٦]. انتهى.

فمن خلال هذا النموذج يتضح منهج الحافظ ابن كثير في عرض الحديث والحكم عليه، إذ ابتدأ بإيراد الحديث من المصادر المعتمدة، فذكر رواية أحمد بن حنبل بسنده الكامل، مما يدل على عنايته بإثبات أصل الرواية من مصادرها الأساسية. ثم أتبع ذلك بذكر طرق أخرى للحديث من المصادر المختلفة، فلم يقتصر على طريق واحد، بل جمع الروايات المتعددة ليقارن بينها ويكشف ما وقع فيها من اختلاف. كما اعتنى ببيان أسماء بعض الرواة وتوضيح المبهم منهم، مثل تعريفه بابن أبي عتيق، مما يدل على اهتمامه بعلم الرجال.

ثم انتقل إلى جانب النقد الحديثي، فنبّه على ما في بعض الأسانيد من انقطاع، وصرح بوجود الخطأ في بعض الروايات، معتمدا في ذلك على أقوال أئمة النقد، مثل الدارقطني، وعلي بن المديني، وأبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، مما يبرز اعتماده على أقوال النقاد المتخصصين. وبعد عرض الروايات المختلفة وأقوال العلماء رجّح الرواية

---

[١] ابن أبي حاتم، ***العلل لابن أبي حاتم***، ٣٩٨/١ (رقم ٦).

[٢] أحمد بن حنبل، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***، ٢٤٠/٤٠ (رقم ٢٤٢٠٣).

[٣] النسائي، ***السنن الكبرى***، ٧٥/١ (رقم ٤).

[٤] في المسند: إبراهيم بن إسماعيل.

[٥] أحمد بن حنبل، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***، ٦٤/٤٢ (رقم ٢٥١٣٣).

[٦] ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه***، ١٨٤-١٨٨.

التي رآها صحيحة، فقال: وهذا هو الصواب كما قاله الأئمة، فجمع بذلك بين الاستقراء والنقد والترجيح. ثم ختم كلامه بقوله: والله أعلم، وهو من أدب العلماء وتواضعهم عند بيان الأحكام العلمية.

ملاحظة: الحديث عن عائشة رضي الله عنها أخرجه عدد كبير من المحدثين، كالشافعي[١]، والحميدي[٢]، وابن أبي شيبة[٣]، وابن راهوية[٤]، والدارمي[٥]، والبخاري[٦]، وأبو يعلى الموصلي[٧]، وابن خزيمة[٨]، والطبراني في الأوسط[٩]، وغيرهم. وكذلك ورد -سوى حديث عائشة وأبي بكر الصديق- من حديث أبي أمامة وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث يتبين أن كتاب مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه للحافظ ابن كثير من المصنفات الحديثية النفيسة التي تبرز مكانة مؤلفه في علم الحديث، إلى جانب شهرته في التفسير والتاريخ. وقد ظهر أن ابن كثير كان محدثا ناقدا جمع بين الرواية والدراية، ولم يكن مجرد جامع للروايات.

وتبين أن الكتاب خُصص لجمع مرويات أبي بكر الصديق من الأحاديث والآثار المتعلقة بالأحكام والسيرة، مع اعتماد المؤلف على مصادر حديثية أصيلة من الصحاح والسنن والمسانيد، مما أكسبه قيمة علمية كبيرة. كما ظهر أن ابن كثير رتبه على أبواب الفقه، فبدأ بالطهارة ثم الصلاة وسائر الأبواب، مع حسن تنظيم وتبويب يسهل الانتفاع به. ولم يقتصر على الجمع، بل اعتنى بذكر الطرق المختلفة للروايات وبيان ما بينها من اختلاف.

ومن أبرز النتائج أن منهجه في قبول الرواية قائم على النقد والتمحيص، إذ أورد الصحيح والحسن والضعيف، مع الحكم على الأسانيد، والاستفادة من أقوال الأئمة النقاد، والعناية بالمتابعات والشواهد. كما أظهر النموذج

---

[١] الشافعي، ***المسند***، ١٤.
[٢] الحميدي، ***مسند الحميدي***، ٢٤٢/١ (رقم ١٦٢).
[٣] ابن أبي شيبة، ***المصنف***، ٣٦٣/٢ (رقم ١٨٠٨).
[٤] ابن راهوية، ***مسند إسحاق بن راهويه***، ٩٣٦/٢ (رقم ٩٣٦).
[٥] الدارمي، ***مسند الدارمي***، ٥٣٨/١ (رقم ٧١١).
[٦] البخاري، ***صحيح البخاري***، ٩٠/٣ (رقم ١٩٤٣).
[٧] أبو يعلى، ***مسند أبي يعلى الموصلي***، ٤٨٤/٦ (رقم ٤٥٦٩).
[٨] ابن خزيمة، ***صحيح ابن خزيمة***، ٧٠/١ (رقم ١٣٥).
[٩] الطبراني، ***المعجم الأوسط***، ٩١/١ (رقم ٢٧٦).

التطبيقي لحديث السواك دقته في جمع الطرق، ونقد الأسانيد، والترجيح بين الروايات. وبذلك يتأكد أن هذا الكتاب مصدر مهم في الدراسات الحديثية، وأن تراث ابن كثير الحديثي جدير بمزيد من العناية والبحث.

وهذا ما أستطيع أن أقدم في هذا البحث، إنما هو بحث قصير من طالب مقصّر، إلا أنه قصد به نشر الفائدة، راجيًا أن ينتفع به الجميع، وأن يُسدَّد فيه الخطأ بالتنبيه والتصويب. والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١- ابن أبي حاتم، ***العلل لابن أبي حاتم*** (الرياض: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م)

٢- ابن أبي شيبة، ***المصنف*** (الرياض: دار كنوز إشبيليا، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م)

٣- ابن العماد الحنبلي، ***شذرات الذهب في أخبار من ذهب*** (بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)

٤- ابن حجر العسقلاني، ***الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*** (الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م)

٥- ابن خزيمة، ***صحيح ابن خزيمة*** (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)

٦- ابن راهوية، ***مسند إسحاق بن راهويه*** (المدينة المنورة: مكتبة الإيمان، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م)

٧- ابن قاضي شهبة، ***طبقات الشافعية*** (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٧هـ)

٨- ابن كثير، ***مسند الإمام أبي بكر الصديق وأيامه وأحكامه*** (عمان: مكتبة الوراق، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م)

٩- ابن ناصر الدين الدمشقي، ***الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر*** (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م)

١٠- أبو المحاسن الحسيني، ***ذيل تذكرة الحفاظ*** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)

١١- أبو يعلى الموصلي، ***مسند أبي يعلى الموصلي*** (القاهرة: دار الحديث، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م)

١٢- أحمد بن حنبل، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل*** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م)

١٣- البخاري، ***صحيح البخاري*** (القاهرة: دار التأصيل، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م)

١٤- جلال الدين السيوطي، ***ذيل طبقات الحفاظ*** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)

١٥- الحميدي، ***مسند الحميدي*** (دمشق: دار السقا، ١٩٩٦م)

١٦- الدارقطني، ***العلل الواردة في الأحاديث النبوية*** (الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)

١٧- الدارمي، ***مسند الدارمي*** (المملكة العربية السعودية: دار المغني، ١٤١٢هـ / ٢٠٠٠م)

١٨- الشافعي، ***المسند*** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ)

١٩- شمس الدين الداوودي، ***طبقات المفسرين*** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٣٣هـ)

٢٠- شمس الدين الذهبي، ***المعجم المختص بالمحدثين*** (الطائف: مكتبة الصديق، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)

٢١- الطبراني، ***المعجم الأوسط*** (القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م)

٢٢- النسائي، ***السنن الكبرى*** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م)